في الأدب الانجليزي

ديكنز وولز

بقلم رشدي ميخائيل السيسى

فترات تقصر أحياناً ، وأحياناً تطول وتطول ، ليس يعنيني أن أعرف أهى من صفاء الذهن وراحة البال ، أم ضجر طارئ وملال ، أعكف فيها على القراءة والاطلاع ، فأذهب إذ ذاك الى دنيا غير هذه الدنيا ، ويغمرني احساس غير مايغمرها من احساس ، وسأخفق إن حاولت أن أظفر بتعليل لهذا العكوف : أتدفعنى اليه رغبة الاعراض عن حقائق الحياة خشية الاصطدام بها ، أم يغريني به نزوع الى تفهم هذه الحقائق ونشدان هذا الفهم فيما ضمته صفحات الكتب من عصارة الأذهان ؟

لن أظفر بجواب قاطع ، ولا يعنيني أن أظفر به ، إنما أؤكد أنه ليس أحب الى نفسى فى مثل هذه الفترات من أن أتناول بيدى أثراً من آثار « ديكنز » معبود الانجليز ومهبط وحيهم بعد شكسبير ، وأن أذهب معه فى سلسلة من الرحلات نغشى فى خلالها رياضاً من الأمل الواسع العريض فنستنشق العبير ونتفيأ الظلال ، ثم نروح تائهين فى صحارى من الشقاء ، فنكتوى بلافح الحر وقاسى الهجير ، ثم لا نحرم فى هذا المدى المترامى من الشقاء القاحل أن نلمح واحة الرجاء من بعيد فنتسابق اليها نتقى وهج الحر ولفح الهجير ، ولكنا لا نأمن بين الحين والحين على أقدامنا وجسومنا أن تدميها أشواك من اليأس والخيبة ، ثم لا نلبث أن نرتفع على أجنحة الخيال الى سماء من السعادة والثراء .

وديكنز فى هذه الأثناء لا يفتأ يحدثنى فى لهجة تلين وترق حتى لكأنها حفيف الأشجار وموسيقى الآلهة ، ثم تعلو وتشتد حتى لكأنها دوى العواصف وقصف الرعود ، يروح يحدثنى عن القناعة وعن البؤس والبائسين ، ويحدثنى أيضاً عن التمرد وعن الظلم والظالمين ، وكأنه يسكب على جراحات التمرد من نفسى بلسما من القناعة والرضا ، ولكنه لاينى بعد ذلك أن يمزق بيده ماعالج من جراحات فى قسوة الحقيقة وعنف الواقع ، بينما هو يتحدث الى فى لهجة يفعمها الألم والغضب عن استبداد الغنى بالفقير ، وعن افتراس القوى للضعيف ، ويهيب بى وبقارئيه جميعاً فى فكر عنيف وفى لفظ ملتهب شديد : أن ارحموا البائسين ودافعوا عن المظلومين !! ذلك هو ديكنز الكاتب الانجليزى الكبير الذى يملأ عين القارئ بالدموع وفمه بالضحكات فى الفترة الواحدة ! والذى يمزج الجد بالهزل ، ويخلط الحكمة بالدعابة ، ويسوقها جميعاً فى كتاباته طعمة سائغة فيها تنوع وجدة ، وفيها قوة وحق وجمال

***

وقد يعلم القارئ أن ديكنز مات عن ثروة كبيرة تبلغ عشرات الألوف ، فهو إذن قد ذاق حياة الترف والثراء وتنعم بها ، وهو لهذا لم يعجز عن تصوير هذا الضرب من المعيشة تصوير فنان خبير ، ولكنك إذ تقرأه وهو يقص تاريخ طفولته الحزينة القاتمة وما لاقاه إبانها من صدمات متتالية ومن متاعب جمة مع شظف العيش والحرمان ، لابد ستأخذك رعدة عنيفة من فرط التألم لهذه الطفولة المعذبة الشهيدة ، وستعلم السر آنئذ فى قدرة ديكنز على التعبير عن آلام البائسين وشقاء الفقراء والمعوزين تعبيراً رائعاً مفعماً بالحياة

وليس يخلو مؤلف لديكنز من آهات متوجعة ، ومن صرخات حزينة ، ومن دموع ملتهبة ، يسكبها فى غير حرص أو تقتير على مذبح الانسانية المضطهدة المعذبة ، الا انه لم يكن فى كتاباته ناقماً عنيفاً الى الحد الذى يثير الفقراء على الأغنياء ويدفعهم الى الحاق الأذى بهم ، بل كل ما كان يرمى اليه أن يهز النخوة ويلين القلوب ويستدر منها العطف والرحمة والايثار ...

ولد ديكنز عام ١٨١٢ وعاش ثمانية وخمسين عاماً قاسى فى العقدين الأول والثانى منها ما قاسى لفقر والديه المدقع ولزجهما فى السجن وفاء لديونهما ، ولكنه بدأ يرقى سلم المجد منذ استهل العقد الثالث ... واشتغل فى أوائل شبابه بالصحافة فكان مخبراً لبعض الصحف ، ثم مندوباً برلمانياً فمحرراً ، فكان بحكم عمله هذا مضطراً الى ان يزج بنفسه فى كل بيئة ، وأن يختلط بكل طبقة ويعاشر كل طائفة من الناس ، فاكتسب خبرة وافرة بمختلف الشخصيات ومختلف النفسيات بعد دراستها دراسة وافية ، فأفاد كل الفائدة بهذه الخبرة ، إذ تيسر له أن يوفق الى أبعد حد فى تصويره للشخصيات المختلفة التى تناولها فى قصصه وروايات

ويشبه ديكنز من هذه الناحية بعض الشبه « ولز » الكاتب الانجليزى المعاصر الذى اشتغل بالصحافة فأصبح لا يكف عن التعرض لشاكل العالم الاجتماعية الراهنة والاجتهاد فى معالجتها

وفرض الحلول المختلفة لها فى أسلوب رائع مفيد ، بيدأنه على الرغم من هذا لن يكون الخلود من نصيب كتبه ، لأن قيمتها موقوفة على الجيل الذى عاش فيه ، وإن طال أجلها فلن تتعدى الجيل الذى يليه ، إذ سيجد العالم المتطور إذ ذاك أن كل ماجاء بها من نظريات ومبادئ قد تحقق جميعه أو جله ، واقتصرت أهميتها على الناحية التاريخية دون غيرها ، ذلك « لأن النزعة الصحفية فى الكاتب انما تعمل لفنائه لا لخلوده ، وهذا الفناء هو فى الواقع تضحية الكاتب بنفسه فى سبيل جيله » على حد قول بعض كتابنا الاجتماعيين

واذا صدق هذا الرأى عند تطبيقه على « ولز » الذى لم يكترث لغير علاج المشاكل الاجتماعية فهو لا يصدق اذا أرسلناه على اطلاقه ، وخاصة اذا أردنا تطبيقه على ديكنز

صحيح أن ديكنز قد كتب معظم قصصه الرائعة للصحف إذ ذاك ، ولكنها ستظل خالدة على مدى العصور ، خلود مافيها من قوة ومن حق ومن جمال ، ولأنها انتزعت من صور الانسانية انتزاعاً ، فملأتها عواطف هذه الانسانية التى لن تتغير ، أجل ، وستظل خالدة لأنها صورة من الفن الخالد رسمتها ريشة أديب فنان سيعيش تراثه على مدى العصور ، وليست موضوعاً اجتماعيا يتغير ويختلف وفقاً للحوادث والظروف ، ويزداد مقدار مافيه من الصحة أو يقل تبعاً لقدرة كاتبه على وضع الفروض والاحتمالات الصحيحة والاستطراد منها الى تقرير نتائج يثبت المستقبل القريب أو البعيد صحتها ، فولز إذن ليس كاتباً اجتماعياً فحسب ، ولكنه كاتب ثاقب البصر بعيد النظر ، صادق الفراسة ، سليم المنطق والاستدلال . أما ديكنز فأديب فنان ينقل الينا أحاديث الطبيعة والانسانية وعواطفها ، ويعبر عنها جميعا أصدق تعبير وأجله ، وهو فى مهمته السامية لايختلف بأى حال عن المصور المبدع أو الشاعر المطبوع . فى الحق انه يكفيك أن تقرأ أى كتاب لديكنز حتى تصل الى هذه النتيجة الصحيحة عنه دون لأى ودون اجهاد

والأديب اذا تناول أى موضوع من المواضيع التاريخية أو الاجتماعية — أو حتى الاقتصادية الجافة — وجعله مادة لكتابته تراه لايفتأ يرويه بدماء قلبه الحية ويغذيه ، ولا يفتأ يسبغ عليه من روحه ونفسه وشتى عواطفه واحساساته ، حتى يبعث فيه الحياة بكل معانيها وصفاتها ، ويكفينا اذا أردنا تطبيق هذا القول على ديكنز ومخلفاته الأدبية أن نستعرض كتابه أو بتعبير أدق طرفته الفنية الرائعة « قصة عن مدينتين » فتؤمن بصحته كل الايمان ، نعم ! فبالرغم من أن موضوع هذه القصة تاريخى جاف وهو تاريخ الثورة الفرنسية ، وبالرغم من أنه تاريخ دموى مروع تقشعر منه الأبدان ، وأنه غير حديث العهد بنا ، فاننا مع هذا لا نكاد نقرؤه حتى نحس فى أعماقنا أن هذه القصة فى جوهرها انما قد كتبت لنا وبيننا ، والتعليل المعقول لهذا أن الكاتب قد استمدها من وحى الانسانية الخالدة غير المتغيرة — الانسانية التى تؤلف بين جميع المشاعر وشتى الاحساسات — وانه قد استلهمها من معنى الحياة غير الزائلة ، التى هى حق للجميع دون استثناء ، والتى قد ترك أمر فهمها وادراكها لهذا « الجميع » كل حسب اجتهاده ومدى تفكيره .

بيدأن هذا لن يكون حال كل اجتماعى مهما علا كعبه ونبه أمره ، لأنه إنما يعالج المشاكل الراهنة فى عصره التى لا بد أن تقتصر أهميتها على العصر الذى كتبت فيه ، وهو قد يفرض لها حلولا مختلفة يصدق بعضها أو معظمها كما هو الحال مع ولز فى كتابه الذى نشره قبل الحرب الكبرى وقدر فيه احتمالات صدقت فراسته فيها ، حتى لقد اعتبرها البعض من قبيل النبوءات ، ولكن بالرغم من صدقها فلن يقدر لها الخلود بأى حال كأى « تراث أدبى فنى » من مخلفات ديكنز العظيم ؟

رشدى ميخائيل السيسى